المبحث الثانى

التشبيهات العقلية

المتنبى صاحب فكر مبصر ، وعقل مستنير وقد رزق الرجل حظوة عظيمة فى قوة التخيل ، وعبقرية التصوير كما غاص على الحقائق التى تستتبع جهادا عقليا شاقا مرهقا ، وقد برز فى الجانبين تبريزا قويا إذ دفعه طموحه الذى لا يتوقف عند حد إلى تحقيق مجد مؤثل سعى نحوه ، وعمل جاهدا بكل قوته للوصول إليه ولم يكن سعيه حثيثا وإنما كان سعيا عنيفا وعراكا متصلا مع الحياة والأحياء ، تلقن بسببها التجارب والوصول إلى أعماق الحقائق يجلوها ، ويسجلها ، ووظف التشبيه فى بعض الأحيان للتغيير من طبيعة المحسوس ، وجعله نوعا من أنواع المعقولات فالتشبيهات العقلية تعبير عن حالة عقلية متصلة بالإحساس ، وغير منفصلة عنه ، ومعبرة عن الموقف النفسى فى لحظة معينة ومترجمة له فهى مزاوجة بين الفكر والتصوير ومزيج من الخيال والعقل والحس .

والمقصود بالتشبيهات العقلية تلك التى يكون وجه الشبه فيها عقليا سواء أكان الطرفان عقليين ، أو كان حسيين أو كان بعضهما عقليا والآخر حسيا ، لأن وجه الشبه هو الباعث على إلحاق أحد الطرفين بالطرف الآخر الذى اتضحت فيه تلك الصفة وأريد إلحاق الطرف الثانى فيها ومن ثَمَّ فإن مَفَادَ التشبيه أنه إدراك صلة بين طرفين وتكون صحته تابعة لوجود وجه الشبه بين المشبه والمشبه به كما ذهب إليه ابن يعقوب[1] ويكون الحكم بحسية التشبيه أو عقليته تابعا لهذا الوجه فإن كان عقليا يحكم بعقليته ولو كانا الطرفان محسوسين كما فى قوله : «اعلم أن الذى تدركه الحواس هى الأعراض ، فالبصر يدرك اللون ، والسمع يدرك الصوت ، والشم يدرك الرائحة . والذوق يدرك الطعم ، واللمس يدرك الحرارة ، واللين ، مثلا فإن أطلقت المحسوس على ذات لا تريد لونها مثلا بل تريد معناها العقلى كان حينئذ عقليا لا حسيا»[2].

---

(١) شروح التلخيص ٣/٣٥١.

(٢) المرجع السابق ٣/٣٠٧ .

وقد تزاحمت التشبيهات العقلية والذهنية المجردة فى شعر الرجل كثيرا لأنها ثمرة لتجاربه فى الحياة وفى الناس مع ثقافته الواسعة ، وموهبته الناضجة ويلاحظ أن كثرة من صور الرجل فى هذا المجال جاءت مرتبطة بالصورة الكلية فى القصيدة وبالغرض العام فهى تأخذ مكانها غير منفصلة عن جوها ولا إلى ما يدعو إليه المقام ففى مرثيته لعمة عضد الدولة يقول[1] :

يَمُـوتُ رَاعِـى الضَّـأنِ فِـى جَهْلِـه ... مَوْتَـةَ جَـالِينُوس فِـى طِبِّـه
وَرُبَّمَـا زَادَ علـى عُمْـرِهِ ... وَزَادَ فِـى الأَمْـن عَلَـى سِـرْبِهِ
وَغَايَـةُ المُفْـرِط فِـى سَـلْمِهِ ... كَغَايَـةَ المُفْـرِطِ فِـى حَرْبِـهِ

إن المتنبى يوظف التشبيه هنا فى عقد موازنة بين الجاهل الموغل فى جهله وبين الطبيب العالم العريق فى طبه ويرى أنهما معا أمام الموت سواء فليس الجهل بأسباب العلاج داعيا إلى الموت . كما أن العلم بها ليس مانعا منه .

فالموت قدر مقدور يختطف الجاهل ، كما يقضى على الطبيب ، بل إن الجاهل قد يزيد على العالم عمرا وسلامة فليس لداء الموت من علاج ، وأن المفرط فى الأخذ بأسباب السلامة والنجاة كالمفرط فى خوض المعامع والغمرات فى أن كليهما ميت فان .

والتشبيه فى البيت الأول يقوم من خلال تشبيه موت راعى الضأن فى جهله بموت جالينوس فى طبه وعلمه ووجه الشبه هو المساواة الكاملة أمام حقيقة الموت .

وفى البيت الثالث يشبه من أفرط فى السلم بمن أفرط فى الحرب فى الفناء والنهاية .

وهو يستعين بمنجله الفلسفى والحكمى فى الرثاء ويتوسل بالتشبيه فى التعبير عن نظريته وهو يرثى والدة سيف الدولة فيقول[2]:

وَمَـنْ لَـمْ يَعْشَـقِ الـدنيا قَـدِيماً ... وَلَكِـنْ لاَ سَـبِيلَ إِلَـى الوِصَـالِ
نَصِـيبُكَ فِـى حَيَاتِـكَ مـنِ حَبِيـبٍ ... نَصِـيبُكَ فِـى مَنَامِـكَ مِـنْ خَيَـالِ

---

(١) الديوان ٢١٣/١ .

(٢) المرجع السابق ٨/٣ ، ٩ .

فليس هناك أحد رغب عن الدنيا ولم يعشقها فالكل يهواها ، ويرغبها ولكن كيف الطريق إلى دوام الوصال ؟

إنها المعشوقة القاتلة التى تقضى فى النهاية على منَ يهيم بهَا ويَفْنَى فى حبها .

والتشبيه فى البيت الثانى يبين مقدار وصال الحبيب لحبيبه فى الدنيا وإنه ليمضى فى سرعة ، وينتهى فى برهة وكأنه خيال يداعب أجفان نائم والتشبيه يقوم من خلال تشبيه نصيب الإنسان فى حياته من وصال الحبيب بنصيبه وهو نائم من طيف الخيال فى سرعة التقضى والزوال والتشبيه فيما سبق تكون من طرفين عقليين وهو يَنْعَى على الإنسان أمله فى الحياة ، ويتهمه بعدم القناعة إلا عند العجز والضعف .

وهو يوظف الصورة التشبيهية فى الشكوى من الناس ، والتفريق بين ابتسامة الود الصادق ، وابتسامة الخداع المتلون ، وهو ينفث فيها من صدره الموتور ما يفيض برأيه فى الناس ونظرته إليهم حين يقول[1] :

وَلاَ تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمِتَهُ ... شَكوى الجَرِيحِ إِلَى الغربان والرَّخَمِ

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ للنَّاسِ تَسْتُرُهُ ... وَلاَ يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرٌ مُبْتَسَمِ

فهو يرى أنه ما مِن صديق إلا وهو مطوى القلب على الغش والخداع ، لأنه بعض من الأنام فإذا رأيت من أحد ابتسامة عريضة فلا يغرنّك مظهرها فإن وراء ذلك غدرا ونهاية .

والتشبيه ينعقد من خلال النهى عن الشكوى إلى أحد بشكوى الجريح إلى الغربان والرّخم ووجه الشبه بين الطرفين هو الشماتة والافتراس .

والتشبيه بصورته تلك يوضح فلسفة الشاعر فى نظرته إلى الحياة والناس .

فالحياة غش ، وخداع ، والناس متلونون ، متغيرون ، وحوش مفترسون لا أمان لهم ولا خير يرجى فيهم ، ولعل هذا التشبيه يحكى انعكاسا لإحساس الشاعر المصور بالمرارة القاتلة حين أخفق مسعاه ، ولم يحقق عند كافور ما كان يأمله . فانعكس الإحساس على التشبيه فنضح بهذه الشكوى على الحد الذى تراه إن المشبه به (شكوى الجريح إلى الغربان والرخم) يصور إلى أى مدى صارت وحشية

---

(١) الديوان ٤/١٦٢ .

الإنسان فى رأى الشاعر فالشاكى فى شكواه إلى الناس يوضح اتجاه الجريح فى شكواه إلى العقبان والرخم ، وأى خير يمكن أن يؤمل من شكوى الجريح الذى تفهق جراحه بالدم إلى الوحوش الكواسر ، وإلى الغربان والرخم ، إنها سوف ترى فيه قنصا ثمينا ، وصيدا حلالا تلغ فى دمه ، وتملأ بطونها من لحمه .

إن هناك مسافة تفصل بين الشاعر والآخرين نشأت على أساس الاختلاف بينهما فى الوسائل والأهداف وهو يريد منهم أن يتجاوزوا هذه المسافة بتغيير ما هم فيه إلى واقعه هو وهو سوء الظن بالناس وعدم الشكوى إليهم إن فى الصورة التشبيهية العقلية «صدعا بين أنا الشاعر وبين الآخرين على أساس الاختلاف فى المسالك والأهداف»[1] .

وهو يتوسل بالتصوير التشبيهى لبيان عدم مفارقة الهموم له فيقول[2] :

كَـأَنَّ الحُـزْن مَشْـفُوفٌ بِقَلْبِـى ... فَسَـاعَةَ هَجْرِهَـا يَجِـدُ الوِصَـالا

كـذا الـدّنْيَا عَلَـى مَـنْ كَـان قَبْلِـى ... صُـروفٌ لَـمْ يَـدمِنْ عَلَيـه حَـالاَ

فالحزن معنى لا تقع عليه الحاسة مشبه بالمشغوف بقلبه المتلهف عليه والعاشق له ووجه الشبه بين الطرفين هو الملازمة .

وفى التعبير (بمشغوف) ما يدل على اللهفة والرغبة والإلحاح والشوق وكلها تعود على المشبه «الحزن» وكأنه كائن حى ينتظر لحظة الهجر من الحبيبة ليصل إلى هذا المحزون ، ويبقى عنده بعد أن أنضج الحب كبده وحرق فؤاده .

وفى البيت الثانى يشبه الدنيا على من سبق عليه وتقدم بما يراها عليه الآن من التغير وعدم الثبات ثم أكد هذا بقوله : (صروف لم يدمن عليه حالا) فهى كالمحن والمصائب لا تبقى على حال واحدة .

كما يتوسل بالتشبيه لبيان أن حبيبه ماثل فى خاطره مصور فى وجدانه حتى ولو كان غائبا مفارقا كما فى قوله[3] :

مُمَثَّلَـةٌ حَتَّـى كَـأَنْ لَـمْ تُفَـارِقِى ... وَحَتَّى كَأَنَّ اليَأْسَ مِنْ وَصْلِك الوَعْدُ

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى دكتور مصطفى سويف ص٣٤١ دار المعارف الطبعة الرابعة .

(٢) الديوان ٣/٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق ٣/٢ .

وَحَتَّـى تَكَـادِى تَمسَـحِينَ مَـدَامِعى وَيَعْبَـقُ فِـى ثَـوْبِىَّ مِـنْ رِيحِـكِ النَّـدُّ

فهو يرى أن حبيبه شاخص فى قلبه ماثل فى خاطره ، مصور فى وجدانه لم يغب عنه رغم بعد المشقة والمسافات التى تفصل بينهما ويبين أنه لم يفقد الأمل والرجاء لأنه يلمح أضواء الوعد من خلال ظلمات اليأس .

والتشبيه فى البيت الأول يقوم من خلال تشبيه صورة الحبيب الماثلة فى الخاطر والعقل والوجدان وعدم بعدها عنه بعدم المفارقة والبعد ووجه الشبه الحضور وعدم البعد ومن خلال تشبيه اليأس من الوصل بالوعد بالوصل فى إمكان التحقق والوقوع ويلاحظ أن التشبيه تكون من طرفين عقليين .

وقد يتوسل الشاعر بالتشبيه فى الجمع بين طرفين حسيين فى وجه شبه عقلى كما فى قوله[1] :

أَلَـمْ يَسْـأَلِ الوَبْـلُ الـذِّى رَامَ ثَنْيَنَـا فَيُخْبِـرُه عَنْـكَ الحَدِيُـد المُـتَلَّمُ
وَلَمـاً تَلَقَّـاكَ السَّـحَابُ بِصَـوبِهِ تَلَقَّـاهُ أَعْلَـى مِنْـهُ كُعبـاً وَأَكْـرَمُ
تَـلاَكَ وبَعْـضُ الغَيْـثِ يَتْبَـعُ بَعْضَـهُ مـن الشَّـامِ يتلـو الحـاذِقَ المُـتَعَلِّمُ

فالغيث يتبع الممدوح ويمضى وراءه ليتعلم منه الجود ، ووفرة العطاء ذلك أن سيف الدولة أعلى من الغيث وأكرم . والتشبيه غير مباشر إذ معنى أنه أعلى من السحاب أن السحاب يشبه به تشبيها معكوسا لوضوح صفة الوفرة والعطاء فيه وضوحا جعل السحاب فى رتبة دون رتبة الممدوح وفى منزلة أقل منه .

وعلى نفس الطريقة شبه الغيث فى البيت الثالث بسيف الدولة وجعله متبوعا يتبعه الغيث ليتعلم منه ويحتذى به فى الجود والكرم .

ومما جاء من التشبيه على نفس المعنى قوله فى سيف الدولة[2] :

تَجِـفُّ الأَرضُ مِـنْ هَـذَا الرَّبَـابِ وَتُخْلِـقُ مَـا كَسَـاهَا مِـنْ ثِيَـابِ
وَمَـا يَنْفَـكُّ مِنْـكَ الـدَّهْرُ رَطْبـا وَلاَ يَنْفَـكُّ غَيْثُـكَ فِـى انْسِـكَابِ
تُسَـايِرُكَ السَّـوَارِى والغَـوَادِى مُسَـايَرَةَ الأَحِبَّـاءِ الطِّـرَابِ
تُفِيـدُ الجُـودَ مِنْـكَ فَتَحْتَذِيـه وتعْجـزُ عَـنْ خَلاَئِقِـكَ العِـذَابِ

---

(١) الديوان ٣/٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٢) المرجع السابق ١/٤٦، ٤٧.

فالمتنبى لا يلجأ إلى التصوير بالتشبيه على النحو الذى اعتاد عليه العرب من جعل السحاب والمطر مشبها به فى التدفق والانصباب ، وإنما يجعلهما فى رتبة أقل من رتبة الممدوح ، وفى درجة أقل من درجته ، لكمال وجه الشبه فيه بعد أن يعقد موازنة بين الغيث المنسكب من السحاب ، والغيث المصبوب ، من سيف الدولة .

ويرى أن غيث سيف الدولة أكثر انصبابا ، وانهمارا ، فيجعله مشبها به ويجعل السوارى والغوادى تسيران لتفيد منه الجود فتحتذيه وتعقل فعله .

إن إحساس الشاعر بكرم ممدوحه تصعد إلى درجة جعلته يرى فى إعطاء الممدوح أصلا يقاس عليه غيره حتى ولو كان السحاب فى تدفقه وغزارته وانهماره ، والمتنبى قد يجمع بين طرفين فى أكثر من صفة عقلية فيكون وجه الشبه متعددا عقليا كما فى قوله[1] :

فَتَى كالسَّحَابِ الجُونِ يُخْشَى وَيُرتجَى ... يُرْجَى الحَيَا مِنْها وتُخْشَى الصَّواعِقُ

فهو يشبهه بالسحاب الجون فى خشية ضرره وفى رجاء نفعه

وقد يكون التشبيه العقلى ممثلا للحالة النفسية كقول الشاعر[2] :

فَوَلَّى بِأَشْياعِه الخَرْشَنِّى ... كَشَاءٍ أَحَسَّ بِزَأْرِ الأُسُودِ

يُرَوْنَ مِنَ الذّعْرِ صَوْتَ الرِّيَاحِ ... صَهِيلَ الجِيَادِ وَخْفقَ البُنُودِ

فالتشبيه متصل بالإحساس ، ومعبر عن الموقف النفسى ، والبيت الأول يحكى صورة الخرشنى ومعه أشياعه وأنصاره فى ذعرهم وهروبهم وفرارهم وكيف أطلقوا سيقانهم مع الريح ، وولوا الأدبار .

لقد فروا كما تفر الشياه حين تحس بزئير الأسود يتردد صداه فى الفضاء الواسع . وقلوبها ممتلئة بالرعب والخوف والفزع .

أرأيت الخرشنى ومعه رجاله ، أمام الممدوح ومعه أبطاله ، والخزى يكلل المهزومين فيفرون فى صورة الشياة الفارة الهاربة من رعب الصوت وامتلائه فكيف بصاحبه ؟ ولك أن تعجب من الشجاعة حين تتجسد فى الممدوح وفى رجاله فيصيرون أسودا يرهبون عدوهم بزئيرهم فكيف بأسلحتهم .

---

(١) الديوان ١/٣٤٦ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٤٤ .

وانظر إلى قمة التركيز فى حكاية الرؤية النفسية للهاربين كالشياه أمام زئير الأسود حين يحكيها التشبيه بصوته وتسمعها أنت من فم الشاعر وقد صور لهم خيالهم من هلع الخوف وشدته أن كل شيء حولهم قد تحول إلى أداة قتال ترميهم فى مقاتلهم ، لقد صارت الطبيعة خصما لهم يترصدهم ويتعقبهم فى فرارهم وهربهم ليعمل السيف فى رقابهم - أرأيت إلى صوت الرياح يرن صداه فى الأفق الرحب وفى الخلاء الواسع العريض فيحدث دويا وطنينا يظن القوم معه أن دَوِيَّه وطنينه إنما هو دَوِى الخيول الصاهلة يمتطيها أسود مغاوير ، وصوت الرايات الخافقة يحملها ليوث كواسر يَتَعَقَّبونَهُم ويسيرون وراءهم ، ويريدون القضاء عليهم. إن التشبيه يحكى الرؤية النفسية للهاربين فى ذعرهم وخوفهم وفزعهم من خلال تشبيه ما أثاره صوت الرياح من خوف وذعر وفزع بما يثيره صهيل الخيول ، وخفق الرايات من ذعر ، ورعب ، وفزع . وجه التشبيه بين الطرفين هو الرعب ، والخوف وقد يحكى التشبيه أثر فعل سؤال الممدوح فى قوله[1] :

والجِرَاحَـــاتُ عِنْـــدَه نَغَمَـــاتٌ ســـبَقَتْ قَبْـــلَ سَـــبهُ بِسُـــؤَالِ

فالشاعر يصف ممدوحه بأنه معطاء كريم ، وأنه يفيض بعطائه ومعروفه على الناس من قبل أن يسألوه ، ويطلبوا عطاءه ، لأن مروءته تمنعه من أن ينتظر سائلا حتى يعطيه وإنما هو سبّاق بالعطاء فلا يحتاج أحد إلى سؤاله فإذا سأله إنسان شيئا فإن نغمة سؤال السائل تؤثر فى نفسه وتفعل فيها فعل الجراح والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه أَثَرِ نَغَمَةِ سؤال السائل فيه قبل أن يسبقه بالعطاء وما يسببه له من ألم بأثر فعل الجراح فى المجروح من ألم حاد وعنيف ووجه الشبه الأثر الناتج عن كل منهما من الأذى والألم وهو وجه عقلى على أن هناك تفسيرا آخر للبيت فى الديوان وهو أن أذن الممدوح تلتذ بنغمة سؤال السائل كما يلتذ بالجراح تصيبه فى مواطن الحرب والقتال . فهو مع كرمه شجاع جرىء ولاحظ كيف يتحول السؤال فى مسمعيه إلى نغمة تطرب لها أذنه وتهتز معها نفسه فيكون التشبيه قائما من خلال تشبيه اللذة من السؤال باللذة من الجرح فى القتال ويكون وجه الشبه هو مطلق اللذة .

---

(١) الديوان ٣/١٩٦ .

كما يصور التشبيه الفرح بسماع سؤال السائل بفرح يعقوب بقميص يوسف فيقول[1] :

كَـأَنَّ كُـلَّ سُـؤَالٍ فِـى مَسَـامِعِه قَمِيصُ يُوسُفَ فِـى أَجْفَـانِ يَعْقُـوبِ
إِذَا غَزَتْـــه أَعَادِيـــه بِمسَـــأَلَةٍ فقـد غزتـه بجـيش غيـر مَغْلُـوبِ

الصورة تمثل عشقه لسؤال من يطلب جدواه ، وعطاياه ، ومن أراد من أعاديه أن يصل إلى قلبه فليتوجه إليه طالبا رفده ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه فرحه بسؤال السائل بفرح يعقوب بقميص يوسف ووجه الشبه بين الطرفين هو الفرح فى كل . وهكذا تتشابك عناصر الحس والوجدان فى إبداع مثل هذه الصور العقلية .

وقد يأتى التشبيه ليبرز الصفة المعنوية بحيث ترى شاخصة محسوسة فتتقرر وتتأكد كقوله فى وصف الحمى[2] :

وزائرتـــى كَـــأنّ بِهَـــا حَيَـــاءً فَلَـــيس تَـــزُورُ إِلاّ فِـــى الظَّـــلاَمِ
بَـذَلْتُ لَهَـا المَطَـارِفَ والحَشَـايَا فَعَافَتْهَـا وَبَاتَـتْ فِـى عِظَـامِى

فهو يشبه زائرته بالحبيبة الخجولة ، ووجه الشبه الحرص على عدم الرؤية . وليست زائرة أبى الطيب إلا تلك الحمى التى أصابته وهو بمصر . ومن يقرأ البيت الأول يرى فيه نوعا من الخداع حيث يتصور أن زائرته تلك فتاة حسناء ، وأنها تحرص على أن تأتيه للزيارة ليلاً خوفا من الرقباء وحتى لا يفتضح أمرها ، وحين تأتى إليه يستقبلها استقبال مشغوف بها ، فرح بلقائها ، ويظل على أمره حتى يفهم أن تلك الزائرة ليست غادة حسناء حين عافت المطارف والحشايا وأبت إلا أن تبيت منه فى العظام ، وإنما هى الحمى اللعينة التى أمرضته وأقعدته . وإبراز المعنوى فى صورة المحسوس ارتقاء بمستوى الشىء المدرك وتصويراً له : « فهناك إدراك ذهنى من خلال اللغة المجردة والتعبير المباشر وهذا هو المستوى الأول وفيه قدر صالح من الوعى بالمعنى والتأثر به ».

---

(١) الديوان ١/١٧٢ .
(٢) المرجع السابق ٤/١٤٦ .

«وهناك إدراك من خلال الصور التى تمثلها الكلمات ويتحول المعنى بواسطتها إلى شيء محسوس يشخص فى هذه الصور ، ويمثل فيها وهذا هو المستوى العالى لإدراك المعانى واستيعاب المواقف بواسطة اللغة»[1].

ومن التشبيهات العقلية ما جاء فيه المشبه حسيا والمشبه به عقليا كما فى حديث المتنبى عن الناقة التى فضلها وآثرها على المرأة ، وجعل منها رمزًا لقهر الصعاب واجتياز الفيافى المرهقات ، وللإرادة القوية العملاقة التى لا تضعف أو تلين فهى منجاة من المهالك ، وكيد للأعداء وإماطة للأذى وسفينة للصحراء يقول الشاعر[2]:

أَلاَ كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلَى ... فِدًا كُلّ مَاشِية الهيدبى

وَكُلُّ نَجَاةٍ بُحَاوِيَةٍ ... خَنُوفٍ وَمَا بِى حُسْنُ المِشَى

وَلَكِنَّهُنّ حِبَالُ الحَيَاةِ ... وَكَيْدُ العُدَاةِ وَمَيطُ الأَذَى

فالشاعر فى انفعاله بالحديث عن النياق التى يتحدث من خلالها عن نفسه . ويرمز بها إلى إرادته الصلبة ، وأنه جوَّاب فلوات لا يعبأ بما يلقاه من مخاطر الطريق . يصل إلى التصوير التشبيهى من خلال تشبيه النياق وهن مدرك بصرى بحبال الحياة فى الوصول والنجاة وكيد العداة فى القوة والثبات وميط الأذى فى قهر ما يعوق .

وتشبيه الحسى بالعقلى ثار من حوله الجدل ، واشتدت بسببه الخصومة ذلك أن الحسى أقرب إلى الإدراك من العقلى وبناء عليه فإن معرفة المحسوس أكثر تمثلا وتصورا فى الذهن من المعقول ؛ لأن المعارف العقلية غالبا ما يكون الطريق إليها هو الحس «ولذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما . . . فالحواس أصل لمتعلقها وهو المحسوس وهو أصل للمعقولات»[3] فالعقلى مستفاد من الحس ومنته إليه فيكون هذا التشبيه على خلاف الأصل فى باب التشبيه لأن المشبه به لن يكون أظهر وضوحاً من المشبه فى وجه الشبه وعليه فلن يتحقق التشبيه وهو قياس الأدنى على الأعلى أو القوى على الأكثر قوة وهكذا وللخروج من هذا الإشكال ونظرا لورود

---

(١) التصوير البيانى لأستاذي الدكتور محمد أبو موسى ص ١٣٠ .

(٢) الديوان ١/٣٦ ، ٣٧ .

(٣) حاشية الدسوقى على شروح التلخيص ٣ /٣١٢.

تشبيه المحسوس بالمعقول فى الأساليب العربية وجب أن ينزل المشبه به المعقول فى هذه التشبيهات منزلة المحسوس الأكثر وضوحا على سبيل الادعاء والمبالغة واعتبار مثل هذا النوع من التشبيه المقلوب[1].

وقد أورد بهاء الدين السبكى رأى التنوخى فى الأقصى القريب الذى منع فيه تشبيه المعنى بالصورة والصورة بالمعنى إلا على نحو من التجوز فتشبيه المعقول بالمحسوس لا يجوز على سبيل الحقيقة[2].

ويرى ابن يعقوب أن الحس أقرب إلى الإدراك وأحق بظهور الوجه فيه ولذا فهو الأحق أن يشبه به العقلى الذى ليس فى تلك المنزلة أمّا ماهو فى تلك المنزلة فلا يلزم أن يكون المحسوس أقوى منه فى وجه الشبه وأشهر به ، وإنما يكون كذلك حيث يكون الوجه أصله الحسى فإذا كان أصله العقلى فيكون العقلى أشهر به وأظهر ، فليس كل تشبيه للمحسوس بالمعقول يكون من عكس التشبيه وقلبه فتشبيه العطر بالخلق الكريم فى الاستطابة من النفس أقرب إلى المحسوس من المعقول ولو شبهت العطر بالخلق الكريم فى الشرف والارتفاع والتلذذ الروحانى لما كان التشبيه مقلوبا لأن (الخلق) المشبه به أظهر فى وجه الشبه (الشرف والتلذذ الروحانى من الحسى) وعلى هذا فلا حاجة إلى جعل تشبيه الحسى بالعقلى من عكس التشبيه دائما وهو ظاهر[3].

واعتبر الرمانى أن هذا التشبيه لا يعد من التشبيه البليغ ، لأن البليغ هو ما يخرج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف[4] وعليه فيكون التشبيه الذى لا يخرج الأغمض إلى الأوضح من باب التشبيه غير البليغ ومن التشبيه العقلى قول المتنبى[5] :

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الإِسْلاَمُ تُخْشَى ... إِذَا مَا حُلْتَ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ

كَأَنَّ السِّهَامَ فِى الهَيْجَا عُيُونٌ ... وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ

(١،٢) عروس الأفراح ٣/٣١٢ .

(٣) ابن يعقوب المغربى ٣/٣١٣ .

(٤) النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ٨١ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن .

(٥) الديوان ١/٣٥٩ ، ٣٦٠ .

فهو فى البيت الأول : يشبه سخاء الممدوح ، ومحافظته عليه ، وعدم التفريط فيه . بتحفظه على إسلامه وعهده وملته لا يتهاون فى شيء من ذلك فى وجه شبه هو المحافظة فى كل .

وفى البيت الثانى : ترى السيوف وقد جردت من حسيَّتها لتتحول إلى رقاد طبعت منه وصيغت والرقاد إنما يأوى إلى المقل والعيون ليحل فيها وينزل بها فلا مكان للرقاد سوى العيون .

والتشبيه فى البيت يقوم من خلال تشبيه السيوف وقد حلت بالرءوس بالنوم وقد حل بالعيون ووجه الشبه أن كلا منهما قد حل فيما يناسبه ، وفيما لا يحل إلا فيه .

ومثل ما جرد من السيف رقادا يجرد من الممدوح عذرا ومن الأبناء ذنْباً فيقول[1] :

وَإِنِّـى وَإِنْ نِلْـتُ السَّـمَاءَ لَعَـالِمٌ ... بِأَنَّكَ مَا نِلْتَ الذى يُوجِبُ القَدْرُ

أَزَالَـتْ بِـكَ الأَيَّـامُ عُتْبِـى كَأَنَّمَـا ... بَنُوهَـا لَهَـا ذَنْـبٌ ، وَأَنْـتَ لَهَـا عُـذْرُ

فهو فى البيت الأول يقول له إنك مع ما بلغته من الشرف حتى صعدت فنلت السماء لم تأخذ ما أنت أهل له . وفى البيت الثانى يخبره بأن سوآت الأيام وإساءاتها الكثيرة كانت غصة فى حلقة ، ولذا عتب عليها منها فلما كنت أنت وجئت إلى الدنيا أزلت عتبى لأنها سمحت بوجود مثلك وفى البيت يقوم التشبيه من خلال تشبيه بنى الدنيا بالذنب فى الإساءة وتشبيه الممدوح بالعذر عن هذه الإساءة فى القبول والإحسان .

وقد تكون الصورة التشبيهية احتجاجية يقصد من ورائها الإقناع بشيء لوترك العقل وشأنه ليتعامل معه لما قبله ورفضه فيقاس على نظير إليه مسلم بوقوعه غير مشكوك فى أمره وبذلك ينال حظه من التصديق والقبول؟ لأنه سار فى مسار الإمكان العقلى كما فى قوله[2] :

مَـا كُـلُ مَـا يتمنـى المـرء يدركـه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

ومعنى البيت أن الإنسان كثيرا ما يتمنى ، ويرغب ، ويجد فى الأخذ بالأسباب التى تنهض برغباته وأمنياته ومع ذلك قد يتعثر ، لأن القدر يجرى بمشيئة عليا

---

(١) الديوان ١٥٩/٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٣٦/٣ .

ليس إلى تعويقها من سبيل فلا يحقق كل ما يتمناه ، وعمل له كما أن السفن تشق عباب الماء فى طريقها إلى غايتها ثم تفاجأ بما لم يكن فى حسبانها فتخلف الرياح بما أتت به حسابها والتشبيه يقوم من خلال تشبيه حال المرء يسعى إلى تحقيق رغبته ويأخذ بالأسباب التى تأخذ بيده ثم يحال بينه وبين الوصول إلى كل ما كان يتمنى ويبغى بحال السفينة التى تقطع الموج بحيزومها وتمضى فى طريقها إلى مرساها ثم تفاجأ بالريح تعوق حركتها ، وتجرى على خلاف ما كانت تشتهى ووجه الشبه حال الشيء يهدف إلى غاية نحوها ويأخذ بالأسباب الموصلة إليها ثم تكون النتيجة شيئا آخر على خلاف تلك الغاية .

ومما جاء على هذا النحو قوله[1] :

وَدَهْرٌ ناسُهُ نَاسٌ صِغَار ... وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

وَمَا أَنَا مِنْهُمُ، بِالْعَيْشِ فِيهِم ... وَلكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

أرَانَبَ غَيْرَ أَنَّهُمُ مُلُوكٌ ... مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُم نِيَامُ

فهو فى البيت الأول : يصب حنقه ولعنته على أناس هذا الدهر التافهين حتى ولو كانت له جثث ضخام .

وفى البيت الثانى أتوقف أمام دعوى الشاعر الذى ينفى أنه من الناس حتى ولو كان يعيش بينهم ووسطهم فهو لا يعد نفسه منهم ، ولا يشبههم مع عيشه فيهم ولما كانت هذه بصورتها تلك قضية مثيرة للشك ، داعية إليه ، لا تكاد تصدق ، بدأ يدفع هذا الظن حين وازن بين نفسه وبين الذهب فالذهب مسكنه التراب ومع ذلك فهو شيء والتراب شيء آخر وهو كذلك يعيش مع الناس ، ولكنه شيء وهم شيء آخر هو يتفوق عليهم مع أنه مختلط بهم تماما كالذهب يتفوق على الرغام مع أنه مختلط به والتشبيه يقوم من خلال تشبيه حال الشاعر يتفوق على بنى جنسه فلا يعد نفسه من أهل دهره وزمانه حتى ولو كان يختلط بهم ويعيش معهم والمشبه به حال الذهب يختلط به التراب مع أنه يتفوق عليه لأنه ليس من جنسه ووجه الشبه هو حال الشيء يختلط بالشيء ولكن يتفوق عليه ويتميز حتى يسير وكأنه ليس منه .

* * *

(١) الديوان ٤/٧٠ .